المحاضرة الثانية

تاريخ الفكر اللساني (2)

أولا- الدراسات الغربية[1]:

تعتبر هذه الفترة فترة انتشارالمسيحية بامتيازحيث تُرجمت التوراة والإنجيل، كما استحدث المبشرون أبجديات للشعوب التي لا تمتلك لغة الكتابة فكانت الكلتية

(1)- ينظر: أحمد مومن، اللسانيات النشأة والتطور، ص 30.

والجرمانية، وهذا ما جعل اللغة اللاتينية تنتشر وتزداد اتساعا(جغرافية ومتكلمين)على حساب اللغة الإغريقية.

إن انتشار المسيحية وتمسك الناس بتعاليمها سمح بظهور أدب لاتيني مسيحي فرض على المتكلمين التخلي عن الأدب الإغريقي الوثني. وفي هذه الحقبة الزمنية اهتم الباحثون بجمع اللغة اللاتينية المنتشرة في مختلف العاميات والألفاظ الصعبة ووضعوا لها مصنفات ومسارد شارحة يرجع إليها الطالب والمعلم والقسيس.

أما فيما يخص الدراسات النحوية فلم تعرف التطور في المراحل الأولى حيث اكتفت بما كان في النحو الإغريقي ولكن بعد حوالي 1100م تقدمت الدراسات اللغوية فألف كل من:

- **الأكسندر دي فيلادا:** سنة 1199م كتابا في النحو اللاتيني على شكل متون شعرية بلغت 2645 بيتا.

- **النحوي الأول:** وهو باحث اسلندي مجهول كتابا بعنوان "أوّل رسالة في النحو" وكان ذلك في القرن 12م عالج فيه نظام الكتابة والتركيب والصوتيات.

- **دانتي(Dante):**في1301م كتابا تناول فيه العلاقة بين اللهجات الايطالية واللغة اللاتينيةالمكتوبة. كما سوغ التفرقة بين اللغات بسبب أسطورة بابل .

- **السكولاستية**[2]: للسكولاستية دوركبير في ازدهارالدراسات النحوية في القرن 14م، كما أحييت الاختلاف القديم حول صحة الكلمات فكان الصراع بين:

1- الواقعيين (Realistes) حيث يرى هؤلاء أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة موجبة ذاتية،ويمثلهم جونس دونس سكوت.

2- المسميين (Nominalistes) يرون أن الكلمات أطلقت عرضا وتعسفا على الأشياء، ويمثلهم غيوم دوركايم.

أما النمطيون (Modalstes) فيرون أن النحو مشترك بين اللغات جميعا،وهذا ما يؤكده قول روجر باكون (ت1321 م) "النحوهو في سائر اللغات وحتى لو أصابها بعض الاختلافاتالعارضة أحيانا ".

ومن أشهر مفكري الفلسفة السكولاستية القديس توما لاكويني St Thomas) (Aquinasالذي خدم المسيحية.

([2])-م ن، ص 31، 32. وينظر: زبير دراقي، محاضرات في اللسانيات التاريخيةوالعامة، ص 22.

ثانيا- الدراسات العربية:

اللغة العربية كغيرها من اللغات نشأت محدودة المعجم لأنها بنت بيئة محدودة وسائل العيش، إلا أن طبيعة حياة الإنسان تتطلب التطور والنمو الذي يسايره تشعب مظاهر الحياة، والعرب ليسوا بمعزل عن هذه السنن الكونية. هذا ما أدى بهم إلى اصطلاحات لغوية جديدة ساعدتهم على التعبير عن أغراضهم بين مختلف القبائل المختلفة لهجاتها، فزادت مفردات اللسان العربي وتعددت تصريفات أحوال كلامهم.

المتتبع للدرس اللغوي العربي بالمقارنة مع الأمم السابقة الذكر يجده متأخرافلم ينطلق إلا بعد ظهور الإسلام وكان بعد تدوين العلوم الشرعية، وهذا بعد منتصف القرن الثاني الهجري يقول السيوطي:"إنه منذ منتصف القرن الثاني الهجري بدأ علماء المسلمين يسجلون الحديث النبوي،ويألفون في الفقه الإسلامي والتفسير القرآني،وبعد تدوين هذه العلوم اتجه العلماءوجهة أخرى نحو تسجيل العلوم غير الشرعية ومن بينها اللغة والنحو".[3]

إن لظهورالقرآن دورا كبيرا في تطوير اللغة العربية وانتشارها بين مختلف الأمم، لهذا أعجب بها كثير من العلماء وخاصة المستشرقين ودرسوها بعناية نذكر هنا ما ذكره إرنست رينان في كتابه "**تاريخ اللغات السامية** " أنه من أغرب ما وقع في تاريخ البشر، وصعب حل سره، انتشار اللغة العربية. فقد كانت هذه اللغة غير معروفة ثم بدأت فجأة في غاية الكمال، سلسة أيٌ سلاسة، غنية أيٌ غنى، كاملة بحيث لم يدخل عليها إلى يومنا هذا أي تعديل مهم، فليس لها طفولة ولا شيخوخة، فظهرت لأول أمرها مستحكمة، ولم يمض على الأندلس أكثر من خمسين سنة حتى اضطر رجال الكنيسة أن يترجمواصلواتهم بالعربية ليفهمها النصارى، ومن أغرب المدهشات أن تثبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحاري عند أمة من الرحل، تلك اللغة فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسنها.[4]

وفيما يلي أهم العلوم اللغوية التي درسها اللغويون العرب:

- علم الأصوات
- علم النحو والصرف

([3])-أحمد مختار عمر، البحث اللغوي عند العرب، ص 79.

([4])- ينظر،أنورالجندي، اللغة العربية بين حماتها وخصومها، مطبعة الرسالة، بيروت، ص 03.

- المعجم
- علم الدلالة.

1- علم الأصوات:

لا يخفى على أي كان أن الصوت طبيعة ملازمة لكل فرد بشري - باستثناء فئة الصم البكم- والظاهرة الصوتية موجودة منذ الوجود"والإنسان المصدر البشري لهذه الظاهرة، وما كان ذلك إلا أن الصوت هوالحامل المادي للحضارة الإنسانية نظرا لطبيعته الحسية"[5].وربما لهذه الأسباب كان منطلق الدراسة عند كثير من الأمم والشعوب، والعرب من بينهم فتناوله بالدراسة علماء القراءات والفلاسفة والنحاة. وفيما يلي بعض الجهود الصوتية عند علماء العرب.

أ- علماء النحو:

كان الدرس الصوتي المنطلق التأسيسي للدرس النحوي خدمة للنص القرآني، مع أبى الأسود الدؤلي
(ت 68هـ):" لما استحضركاتبا وأمره أن يتناول المصحف، وأن يأخذ صبغا يخالف لون المداد فيضع نقطة فوق الحرف إذا رآه يفتح شفتيه، وتحت الحرف إذا رآه قد خفض شفتيه. أما إذا أتبع الحرف الأخير غنة فينقط نقطتين فوق بعضهما. أما الحرف الساكن فقد تركه"[6].

ومن بين النحويين الذين تناولوا الظاهرة ليس لذاتها وإنما لغيرها نجد على سبيل المثال سيبويه في"**الكتاب**"يعالج قواعد الإعلال والإبدال قبل ظاهرة الإدغام،والمبرّد في"**المقتضب**"، وكذلك الزجاجي في كتابه"**الجمل**" وأنهى الزمخشري كتابه"**المفصل**" بالإدغام [7].

ومن الكتب المستقلة في الدراسات الصوتية نجد كتاب"**سر صناعة الإعراب**" لابن جني (ت 392هـ) حيث تناول فيه ما يلي: عدد حروف الهجاء وترتيبها ووصف مخارجها. وبيان الصفات العامة للأصوات وتفسيرها باعتبارات مختلفة. وما يحدث في صوت الكلمة من تغيير يؤدي إلى الإعلال أو الإبدال أو الإدغام أو النقل أو الحذف[8].

2- علماءالمعاجم:

([5])- أحمدحساني، مباحث في اللسانيات،ص67.
([6])-أحمدمختار عمر،البحث اللغوي عند العرب، ص 80.
([7])-ينظر: م ن، ص 91.
([8])-محمودفهمي حجازي، البحث اللغوي، ص16.

المتفحص للمعاجم العربية يجد الظاهرة الصوتية منتشرة في مختلف أجزاء أي معجم، كما أن الاهتمام بالجانب الصوتي كان العتبة الأولى في الدراسة المعجمية العربية مع الخليل في كتابه"**العين**"، إذ هو رائد أعلام المعجميين العرب كما تناول المشكلات الصوتية في مقدمة هذا المعجم متطرقا إلى ترتيب الحروف ومخارج الأصوات. وهذا ما نجده كذلك في كتاب"**الجمهرة**" لابن دريد.

3- علماءالتجويد:

كان ابن مسعود من أحسن مرتلي القرآن وهو الذي قال:"جوّدوا القرآن وزينوه بأحسن الأصوات". إن هذا الأمر يعتبر دعوة إلى الاهتمام بالجانب الصوتي في التلاوة؛ لذا تناولت كل كتب التجويد مخارج الأصوات وصفاتها. وهذا ما يؤكده وجود مصطلحات من قبيل: الإشمام، الإشباع، المد، الاختلاس، التفخيم، والترقيق ونحوه[9].

4- علماءالبلاغة:

اهتم علماءالبلاغة والبيان بفصاحة الألفاظ بالنظر إلى مخارج الأصوات وصفاتها وما يؤدي ذلك إلى تنافر أو تآلف ومن بين هذه الدراسات ما قام به كل من: الرماني في كتاب" **النكت في إعجاز القرآن**"وابن سنان الخفّاجي في"**سرالفصاحة**"وأبو بكرالبقلاني في"**إعجاز القرآن**"والجاحظ في"**البيان والتبيين**".

2- المستوى النحوي:

بعد انتشار الدّين الإسلامي ودخول الناس فيه أفواجا تفشى اللَّحن في اللِّسان العربي وانتقل إلى القرآن ما دعا علماء العربية إلى وضع النحو، الذي يعرف به أواخر الكلم إعرابا وبناء، وهو ما يعرف بعلم الإعراب[10] لهذا عظمت أهميته في التحاق غير العرب بالعرب لسانا ومعتقدا فكانت هذه القواعد خير ضابط للاستعمال اللساني الصحيح للغة العربية.

أما فيما يخص واضع علم النحو تكاد كل الروايات تتفق على أبي الأسود الدؤلي، يقول ابن سلام:" كان أول من أسس العربية وفتح بابها وأنهج سبيلها ووضع

([9])-ينظر: أحمد مختار عمرالبحث اللغوي عند العرب، ص 96.

([10])- إبراهيممصطفى، إحياء النحو، ص 1.

قياسها أبوالأسود الدؤلي"[11]. ويعد سيبويه المقنن الأول لمنظومة النحو العربي من خلال كتابه:"**الكتاب**" الذي كان المازني يمجده: " من أراد أن يعمل كتابا في النحو بعد كتاب سيبويه فليستحي " كما كانوا يسمونه بـ" قرآن النحو"[12]. وازدهرت الدراسة النحوية مع الخليل بن أحمد حيث سمى علامات الإعراب في الأسماء باسم الرفع والنصب والخفض وحركات المبنيات باسم الفتح والضم والكسر، والسكون بالوقف ....

ومن شدة الاهتمام بالدرس النحوي نشأت مدارس له لكل مدرسة أسس وقواعد وأتباع ويجمع الدارسون أن أسبق المدارس هي الكوفة والبصرة، في حين نجدم هدي المخزومي وشوقي ضيف وغيرهم يضيفون مدارس أخرى في بغداد والشام ومصر والأندلس والمغرب.[13]

أما الصرف فكان عملا تابعا للنحو فدرسه سيبويه في الجزء الثاني من الكتاب حيث تعرض إلى: النسب، التصغير، التوكيد، جمع التكسير، أوزان المصادر، صيغ الأفعال، معاني الزوائد، اسم الآلة، أسماء الأماكن، الإمالة، الوقف، الإعلال، الإدغام ...إلا أن بعض الدارسين يرجعون وضعه إلى معاذ الهراء وهو من علماء البصرة. لما غلب عليه الاشتغال على الأبنية.

3- المستوى المعجمي:

التأليف المعجمي بدأ مع رحلات علماء اللغة في جمع المادة الفصيحة من مختلف القبائل العربية حيث مرت عبر ثلاث مراحل:

1- مرحلة جمع الكلمات دون ترتيب.

2- مرحلة التصنيف المعجمي.

3- مرحلة النضج المعجمي حيث جمعت ألفاظ العربية جميعا وفق منهج علمي دقيق.

ومن أشهر المعجميين:

- **في القرن الأول الهجري:** نصر بن عاصم الليثي(ت 89هـ) الذي ألف كتابا في"**ترتيب حروف الهجاء**"، وأبوعمرو إسحاق بن مرارالشيباني (ت 94هـ) ألف رسائل كثيرة منها:"**غريب الحديث**"،"**الإبل**"،"**الخيل**"، "**النوادر**، "**خلق الإنسان....**

([11])- شوقي ضيف، المدارس النحوية، دار المعارف،مصر،1972. ص 11.

([12])- ينظر:أحمد مختار عمر، المرجع السابق، ص 124.

([13])- للمزيد يرجى العودة إلى : شوقي ضيف، المرجع السابق .

- **القرن الثاني الهجري:**أبو مالك عمرو بن كركرة ألف في : "**خلق الإنسان**"،"**النوادر**"، الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170هـ) ألف كتاب"**العين**"وكتاب"**معاني الحروف**"، وألف الكسائي (ت189هـ) "**معاني القرآن**"، و"**ما تلحن فيه العامة**".

- **القرن الثالث الهجري:** ألف الفّراء (144هـ) "**مشكل اللغة**"،و"**معاني القرآن**"، كما ألف أبو عبيدة معمر بن المثنى (ت 110هـ) "**غريب الحديث**"،"**الشوارد**"، "**الزرع**".ومن بعدهم الأصمعي (216هـ)، ويعقوب بن السّكيت (ت 244هـ)، أبو حاتم السّجستاني (ت 248هـ) ،أبو عثمان المازني (ت 249 هـ)، أبو العباس المبرد (ت286 هـ) وغيرهم كثير .

- **القرن الرابع الهجري:** نجد كلا من: علي بن الحسن كراع النمل (ت 309هـ)، وعبد الرحمان بن عيسى الهمذاني (ت 320هـ)، وابن الأنباري (ت328هـ)، والزجّاجي (ت 337هـ)، والفارابي (ت 350هـ) ، وأبو الطيب اللغوي (351هـ).

- **القرن الخامس الهجري:** الخطيب الاسكافي (420هـ)، أبو منصور الثعالبي(429هـ)، أبو الحسن بن سيده (458هـ).

- **القرن السّادس الهجري:** أبو القاسم الراغب الاصبهاني (ت 502هـ)، التّبريزي (ت502هـ)، أبو القاسم الزمخشري (ت 538هـ)، أبو منصور الجواليقي (ت540هـ)، أبو البركات الأنصاري (ت577هـ)، أبو محمد بن برّي (ت 582هـ).

- **القرن السّابع الهجري**: الحسن بن محمد العمري الصّاغاني (ت 650هـ)، الرازي (666هـ)، الشاطبي (684هـ).

- **القرن الثّامن الهجري:** محمد بن مكرم ابن منظور (711هـ)، أبو حيان (745هـ)،الفيومي (ت 770هـ).

- **القرن التاسع، العاشر، الحادي عشر، والثاني عشر:**الفيروز أبادي(ت817هـ) جلال الدين السيوطي (911هـ)،شهاب الدين الخفاجي (ت 1069هـ)، الزبيدي1205هـ).[14]

4- المستوى الدلالي:

([14])- ينظر: المبروك زيد الخير، محاضرات في قضايا المعجم العربي وعلاقتها بالدرس اللساني الحديث، ص 53 وما بعدها.

تعتبر الدراسة الدلالية من المحطات الأولى في البحث اللساني العربي ويعتبر ابن عباس من أوائل الباحثين في ذلك هذا إذا ما اعتبرنا محاوراته مع نافع بن الأزرق في تفسير معاني بعض الكلمات الغامضة من القرآن. قصد تحديد المعاني، وتعد الأعمال اللغوية المبكرة عند العرب من مباحث علم الدلالة مثل: معاني الغريب في القرآن، والحديث عن مجاز القرآن، والتأليف في الوجوه والنظائر في القرآن، وإنتاج المعاجم الموضوعية ومعاجم الألفاظ، وتنوعت اهتمامات اللغويين العرب التي غطت جوانب كثيرة من الدراسة الدلالية:

أ- ابن فارس في مقاييس اللغة حيث ربط المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها.

ب- الزمخشري في أساس البلاغة فرّق بين المعاني الحقيقية والمجازية.

ج- ابن جني في الخصائص ربط بين تقلبات المادة الممكنة بالمعنى الواحد.

أما اهتمامات الأصوليين وعلماء الكلام والفلاسفة تمثلت في:

- عقد الأصوليين أبوابا للدلالات في كتبهم وتناولت موضوعات مثل: دلالة اللفظ، دلالة المنطوق والمفهوم، تقسيم اللفظ من حيث الظهور والخفاء، العموم والخصوص، التخصيص والتقييد والترادف والتضاد والاشتراك ودلالة التضمن والالتزام والمطابقة.

- دراسات وإشارات كثيرة للمعنى في مؤلفات الفارابي وابن سينا وابن رشد والغزالي والخوارزمي وابن حزم وغيرهم.

3- **اهتمامات البلاغيين**:

تمثلت في دراسة الحقيقة والمجاز، وفي دراسة كثير من الأساليب كالأمر و النهي... وفي نظرية النظم للجرجاني التي تعد بؤرة الدرس الدلالي العربي، بالإضافة إلى عنايتهم الفائقة بالمعنى ا لسياقي وعلاقة المقال بالمقام.[15]

([15])- هشام عازار مخايل، اهتمامات علم الدلالة في النظرية والتطبيق، المؤسسة الحديثة للكتاب، لبنان، ط1، 2012، ص 26 ، 27.